الكتابات الفينيقيّة المعروفة في زماننا والمرجح انها ليست فقط من القرن السادس بل تتّصل بالسابع وسأعود الى وصف هذه الكتابة في مقالة انشرها في غير هذه المجلّة. وانما اردت الآن ان اتحف بهذه العجالة قرّاء المشرق والسلام

المختار في كشف الاسرار

نظر للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع لما سبق)

ومن الفصول اللطيفة التي خصّها الجوبري بمماطلة القناع عن خُدَع المدلّسين ومكر المشعوذين فصلهُ الرابع في نسختنا (ص ٣٠—٤٠) وهو السادس في غير نسخ وقد قسمهُ ثمانية ابواب بيّن فيها اسرار بني ساسان وحيلهم الغريبة وبنو ساسان جيل من البشر يتنقّلون في البلاد ويرتزقون باصناف الغش وهم الذين يدعوهم اهل بلادنا بالنَّوَر كما اثبت حضرة الاب انستاس الكرملي في مقالتهِ المعنونة «إطلاع الحضر على أطلاع النوَر» (اطلب المشرق ٥: ٩٦٧ — ٩٧٠ و ٦: ٢٨٨). وقد افتتح المؤلف كلامهُ فيهم بقولهِ:

اعلم ان هذه الطائفة يدخل فيها جميع الطوائف ويتعلّق بها اكثر الخلق وذلك انها صناعة واسعة الدائرة تحتمل امورًا شتّى واهلها اصحاب دهاء ومكر وحيل وجسارة على كل ما يفعلون ولهم الف باب من ابواب المكر... فهم اصحاب النواميس والفقراء والمدروزين واصحاب البلاء (يريد المدّعين بالبرص) والزطّ واصحاب الوحوش مثل الدبّ والقرد والذين يلعبون بالتيوس والحمير ويُوثّقون بين القطّ والفار ويعملون الاحى النساء والذين يدّعون انهم كانوا مأسورين والذين يدّعون المرض والعاهة وكل مرض ويظهرون الاستسقاء والقروح والجراحات ولهم اشغال كثيرة مثل ذلك...

أمّا انتسابهم الى ساسان فهو شيخٌ محتالٌ كان يخدع الناس بالكدية. قيل ان هذا الشيخ كان يقول «الحيلة على الناس ولا الحاجة اليهم» وزعموا انهُ كان اتخذ لهُ عصًا لاسفارهِ كتب عليها «من جسر ايسر ومن هاب خاب»

ثم اتّسع الجوبري بوصف تحايلهم وذكر من ذلك امثالًا بديعة نروي منها شيئًا. فانهُ بدأ بذكر الذين يتعاورون فقال «انهم اذا ارادوا ذلك اخذوا من دم القراد جزءًا

ومن الصمغ العربي جزءا ثم يكتحلون به على اطراف جفونهم فتنطبق وتلتصق فلا يشكّ من يراهم انهم عميان. فاذا ارادوا فتح عيونهم ياخذون الصابون وينحتونهُ ويلقونهُ في الماء مع شيء من القلى ويغلونهُ حتى يذهب منهُ الربع فيتزلونهُ من عن النار ويغسلون به عيونهم فتنفتح "

ثمّ تخطّى المؤلف الى ذكر من يدّعي بالجذام ويتظاهر بالاستسقاء . اما الجذام فيلوح عليهم اذا استحثّوا بنقيع يغلونهُ على النار فيه اجزاء متساوية من ورق العظلم والكبابة والقاقند . واماً الاستسقاء الموهوم فبأن يغلوا نقيعاً من ماء التين الاخضر ومن بيض النمل فيشربونهُ فتكبر بطونهم ووجوههم حتى يخيل لمن يراهم انّ بهم استسقاء ثمّ يعالجونهُ بماء الهندباء وسكّر الطبرزد فيزول

ومن ظريف القصص التي اخبر بها المؤلف قصّتان جرتا لهُ مع هؤلاء الحبثاء نرويها هنا تفكهة للخواطر

القرد المسحور

(قال الجوبري) رأيت بخراسان (ويُروى بحرّان) سنة ٦١٣ هـ (١٢١٧م) رجلاً من بني ساسان اخذ قردًا وعلمهُ السلام على الناس والتسبيح والسراك والبكاء ثم رأيت من هذا القرد من الناموس ما لا يقدر عليهِ احد من الناس . فاذا كان يوم الجمعة جاء عبد هندي لطيف الملبوس حسن الشمائل الى الجامع ومعهُ سجّادة حسنة فيفرشها عند المحراب فاذا كانت الساعة الرابعة جاء القرد بملبوس عظيم من ملابس الملوك وفي وسطهِ حياصة ذهب مرصّعة بانواع الجواهر وقد طيّبهُ بانواع الطيب وأركبهُ بنلةً بقماش فاخر وركابات محلّاة بالذهب ثم يمشي في خدمتهِ ثلاثة عبيد هنود بافخر ما يكون من الملبوس الواحد يحمل وطاءهُ والثاني تاسومتهُ (ويروى سروزتهُ) والثالث يمشي قدّامهُ كالحاجب لهُ . وهذا القرد لا يمرُّ على احد الّا تسلّم عليهِ طول الطريق

فاذا وصل الى باب الجامع نزل فيتقدمون لهُ التاسومة (السرموزة) فيلبسها ثم يعضدهُ العبد الى ان يصل الى الموضع الذي فيهِ السجّادة وهو مطرق بالهيبة والسكون وكلُّ من سأل عنهُ يقال لهُ : هذا ابن ملك الفلاني من اكبر ملوك الهند وهو مسحور . ثمّ يفرش لهُ العبد الوطاء فوق السجّادة ويحطّ لهُ مسبحةً وسواكاً فيقلع القرد بيدهِ

منديلاً من وسطهِ من الحياصة ويضعهُ قدّامهُ . ثمَّ يتناول المسواك فيستاك بهِ ويصلّي ركعتين تحيّة المسجد ثم ياخذ المسبحة ويسبّح

فاذا فعل ذلك قام العبد الكبير وسلّم على الناس وقال : يا اصحابنا من اصبح معافًى فليشكر الله على ما انعم عليهِ واعلموا انَّ بني آدم هدف للبلايا فمن ابتُلي فليصبر ومن عوفي فليشكر واعلموا انَّ هذا القرد الذي ترونهُ بينكم لم يكن والله في زمانهِ احسن منهُ شباباً وهو ابن الملك الفلاني صاحب الجزيرة الفلانيَّة فسبحان من سلب منهُ الحسن والملك ومع ذلك فانهُ لم يُرَ في الناس ارحم منهُ قلباً ولا اروع منهُ وانما هذه الدنيا كثيرة المحن . فكان من القضاء المقدور انَّ اباهُ زوجهُ بابنة الملك الفلاني فاقامت معهُ كذا وكذا سنة ثم نقلوا اليها انَّهُ عشق غيرها فهربت الى بيت اهلها ولما حصلت عند امّها سحرتهُ امّها فصار قردًا كما ترون . فلما علم والدهُ بذلك امر السحرة والاطباء والحكماء ان يردّوهُ الى صورتهِ فعجزوا عن ذلك فامر باخراجهِ من الاقليم لما لحقهُ من العار بين الملوك وقد سألنا زوجتهُ فيهِ غير مرَّة ان تعيدهُ الى حالتهِ الاولى فامتنعت وقالت انها تركت عنده اثاثًا قيمتهُ مائة الف دينار وحلفت لا تردّهُ الى صورتهِ الّا بها وقد درنا بهِ البلاد وتعصّبت لهُ الملوك والتجار فجمعنا لهُ تسعين الف دينار وبقي عشرة الاف دينار فمن يساعده بشيء من ذلك ويعينهُ على ما قضي عليهِ ويرحم هذا الذي عدم شبابهُ وملكهُ واهلهُ ووطنهُ ؟ فاذا سمع القرد ذلك وضع المنديل على وجهه وبكى امرَّ بكاء يدموع كالمطر فترقّ لهُ القلوب وما من الحاضرين الّا ومن يردفهُ بشيء فما يخرج من الجامع الّا بشيء كثير وهم يدورون بهِ البلاد على هذه الصفة فاعلم ذلك

المكدّي المحتال

(قال الجوبري) ومن ذلك اني كنت في قونية من بلاد الروم سنة ٦١٦ (١٢٢٠م) فمررت في بعض الشوارع فرأيت انساناً عليهِ ثياب خلقة وهو ملقًى على جنبهِ ورأسهُ معصّب بخرقة وهو ينئّ انين الضعيف ويقول : من يقضي شهوتي برمّانة . فلمّا نظرت اليهِ قلت : وعزّة الله من بني ساسان ولا بُدَّ ما أبصر ماذا ينتهي اليهِ امرهُ . فجلست قريباً منهُ بحيث اراهُ ولا يراني . فصارت الدراهم تتساقط عليهِ مع القطع والفلوس والخبز وغيره . فلم يزل كذلك الى وقت القائلة حتى خفَّ الناس عنهُ الرائح والجاني .

فلما رأى ذلك التفت يميناً وشمالاً فلم يرَ احداً فوثب مثل البعير المنشط اذا فكَّ من عقاله وجعل يخترق الازقة والشوارع وانا خلفهُ الى ان انتهى الى زقاق غير نافذ امام باب دار حسنة البنيان بساطب وفانوس معلّق . فرقي العتبة وطرق الباب ففُتح لهُ . وهمَّ بالعبور فادركتهُ وقلت : السلام عليك . فقال : وعليك السلام مَن تكون ؟ فقلتُ : ضيف . فقال : مرحباً بالضيف ثم اخذ بيدي وقال : خير مُقدم ادخل . فدخلت قاعةً واسعة فيها من البسط والفرش والمساند والاثاث ما لا يوجد الّا عند الاكابر من ابناء الدنيا فقال لي : اصعد . فصعدت على طرّاحة حسنة . واما صاحبي فانهُ رمى من رقبتهِ مزودًا فيهِ مقدار عشرة ارطال خبز وفيهِ دراهم وفلوس شيء كثير . ثم شدَّ وسطهُ بفوطة تساوي دينارين وخلع ذلك الخلق فتقدَّمت لهُ الجارية ماء سخيناً وطشتاً ليتغسَّل ثمَّ لبس بدلة قماش فاخرة وشمَّ ماء ورد ممسَّكاً وتطيَّب فرأيتُ لهُ شعراً طويلاً وطلع فجلس الى جانبي وقال لي : والله هذا نهار مبارك برؤيتك . فقلت : بارك الله فيك واعانك على ما انت بصددهِ . ثم قال : يا حرير (وهو اسم جاريتهِ) هاتي ما عندكِ برسم ضيفنا . فما ادري الّا والجارية قد احضرت مائدة عليها اربع زبادي صيني في كلٍّ واحدة لون فاخر طعام خاص وخبز خاصّ . وبقل من جميع البقول . ثم احضرت سكُرداناً عليهِ حريفٌ ومالح وحامض فصار يأكل ويلقمني ويؤانسني بالحديث وانا اعمل باليدين الى ان اكتفينا وغسلنا ايدينا فقال لي : اليك المعذرة جئتنا على غير وعد لكنَّ الكريم يسامح . ثم تحدَّثنا ساعةً ونادى : يا حرير هاتي لنا ما نتحلّى بهِ فاحضرت انواعاً من الحارى لم تحصل الّا عند الاغنياء الكبار فأكلنا منها حسب الكفاية

هذا وانا في غاية التعجب ثم قلتُ لهُ : لو فتحت لك دكان بزاكان (ويروى : بزاركان) لكان خيراً لك من هذه الحرفة التي تمانيها . فتبسَّم ثمَّ قال لي : كم يكون مكسب التاجر كل يوم لو كان راسُ مالهِ خمسة الاف دينار . قلت : لعلَّهُ يكسب نصف دينار . فقال : انا يقع لي كل يوم خمسة عشر درهماً واكثر واقلّ فائدة بغير رأس مال فماذا اصنع بالدكان . مع ان التاجر لا يخلو من الخسارة في بعض الاوقات وعليهِ كُلَف اما انا فربح بلا خسارة . فقلت لهُ : ماذا تصنع بالخبز الذي يفضل لك كل يوم . قال : نبيعهُ ونعمله فتيتاً فتجيء تجار انطاكية يشترونهُ لسفر الراكب في البحر المالح فيحصل لنا منهُ كل سنة مؤونة اهل البيت وكسوتهم . فتعجبت من ذلك

ثم قال لي بعد ذلك: وما تقول في الخمر أتستعمل شيئاً منها . قلتُ: ارضى بها وبكل ما ينتهي اليها . فنادى الجارية باحضار المدام فأحضرت سفرتهُ وآنيتهُ وأحضرت شراباً عتيقاً لم اشرب منهُ الا عند الاكابر والروساء . فشربنا ثم قال: يا حرير خلي اختك تنزل فتطيب عيشنا . فنزلت جارية من احسن ما يكون من الجواري ومعها عود فلعبت به ساعةً ثم القتهُ واخذت الجنك فضربت عليه ساعة ولم تزل تبدّل الالاهي حتى انتصف الليل . فلما اردنا النوم قال: والك يا فلانة افرشي لسيّدك في المخدع الفلاني واوقدي لهُ قنديلاً . ثم انتني بطشت ومنشفة فاغتسلتُ ثم نمتُ ولم ازل نائماً الى بكرة النهار . فانتبهت فاذا به قد دخل عليَّ وقال لي: يا سيّدي الضيافة ثلاثة أيام فلا تبرح من مكانك حتى اعود اليك ثم قال للجارية : هاتي العدّة فاتتهُ بذلك الحلق . والزود والعصابة فحسب رأسهُ وخبأ شعرهُ ولبس ذلك الحلق . ثم اتتهُ بخلاة فيها تراب فجعل ينفض عليه حتى غبّر وجههُ وثيابهُ ثم انهُ ودّعني وخرج

ولم تزل الجارية تتفقّدني بالشراب الطيب والطيّبات من المآكل الى وقت الظهر فاذا به قد جاء وفعل كما فعل بالامس فاقمت عنده الى يوم الجمعة فقال الجارية: خذي سيّدك الى الحمّام وقولي لفلان البلّان: سيّدي يسلّم عليك ويقول لك اخدم هذا الرجل . ثم قال لي: اريد منك ان لا تصلّي اليوم الّا عند المنبر فان لي في ذلك غرضاً ثم تعود بعد الصلاة الى هاهنا ثم لبس آلتهُ وخرج

وقامت الجارية واخذت بساطاً اقصرانيًّا (كذا) وطاسات نحاس وكُفتاً ومنزرًا ملطيًّا ومناشف رومية في نهاية الحسن مبخّرة مطيّبة وعبّت آلة الحمّام كما ينبغي وراحت بها الى الحمّام . ثمَّ عادت اليَّ وقالت لي: بسم الله يا سيّدي اسرع فانَّ البلّان في انتظارك . فقمتُ الى الحمّام وخلعت قماشي ودخلتُ والبلان قدّامي الى المقصورة فخدمني احسن خدمة . ثم جاءني بالمناشف فتنشّفتُ وخرج خلفي بالطاسة فصعدت وجلست وصبَّ الماء على رجليَّ . ثم جاءتني الجارية بقدح شراب فشربتهُ ورجعت الى الدار والجارية قدّامي . ثم جاءتني بمساوق فأكلت

فلمّا جاء وقت الصلاة قالت لي الجارية: بسم الله الى الجامع . ثم حملت معي سجّادتي وخرجنا الى الجامع فبسطتُ سجّادتي تحت المنبر كما قال لي صاحبي . وفي اثناء ذلك اذّن المؤذن وخرج الخطيب ورقي المنبر فلم اشعر الّا وصاحبي قد اقبل يخرق

الصفوف وهو بذلك الخلق ثم صعد الى الخطيب على المنبر واخرج من عُبّه كيساً من الحرير الاطلس المدني فقال للخطيب: يا سيدي انا رجل فقير ولي عائلة ووالله لنا يومان ما اكلنا شيئاً وقد مضّنا الفقر. فلما كان اليوم قالت لي العائلة: اليوم يوم الجمعة قم الى الجامع لعلّ الله يفتح لك بشيء فقد هلكنا من الجوع. فخرجت طالباً الجامع وانا في الشارع الفلاني وقد تضوّرتُ من الجوع اذ عثرت رجلي بهذا الكيس ولا أعلم ما فيه فسوّلت لي نفسي ان آخذهُ وارجع الى منزلي فقلت: يا نفس يا ملعونة تريدين أن تجرّئيني على اكل الحرام والله لا وافقتكِ في ذلك ابدًا ولو متُّ جوعاً وما عند الله خير وابقى. وقد حملتهُ اليك فافعل بهِ ما ترى

ثم دفع الكيس للخطيب ففتحهُ واذا فيهِ حليّ تساوي خمسمائة دينار. فتعجّب الخطيب من امانتهِ مع ما هو فيهِ من الفقر والحاجة ثم اشار الى الناس وقال: يا قوم هل يكون في الوجود مثل هذا في دينهِ وامانتهِ وعفّتهِ مع فقرهِ فكيف يكون لو كان غنياً غير محتاج فوالله مثل هذا لا يصلح ان يكون فقيراً بين ظهور المسلمين فالواجب على كل مسلم اعانتهُ وبرّهُ فليعطهِ كل واحد منكم شيئاً واغنوا فقرهُ كلٌّ على قدرهِ. فصارت الدراهم والذهب تنهال عليهِ من كل جهة الى ان قدّرت انهُ حصل لهُ مائتا دينار. هذا وانا الومهُ في نفسي واقول قد حصل لهُ شيء يساوي الف دينار فباعهُ بهذا القدر

فلما انقضت الصلاة ونحن في اثنّة سمعتُ الضجّة قد قامت في الجامع فنظرت واذا بامرأة عجوز وهي تصيح وتقول: يا مسلمون والله ما املك قوتي في هذا اليوم وقد ضاع لي حليّ حملتهُ من ناس الى ناس فوقع مني. فبلغني انهُ وصل الى الخطيب وانا مستجيرة بالله تعالى وبهِ. فجعل الناس يقولون لها: طيّبي خاطركِ فقد ردّهُ الله اليك. ولم تزل تخترق الصفوف حتى وصلت الى الخطيب فخرّت مغشيًا عليها. ثم افاقت فقالت: يا مولاي المعذرة لا تؤاخذني وارحمني لله تعالى. فقال لها الخطيب: على مهلك ما الذي عُدم منك فقالت: كيس صفتهُ كذا وشرّابتهُ كذا وفيهِ كيت وكيت من الحلي وكذا قطعة بلخش واسورة كذا وخواتم كذا. ولم تزل تعدّد الاعيان التي ضمنهُ بحضور الملإ وقدّام جماعة من العدول وكلما ذكرت شيئاً اخرجهُ الخطيب الى ان وصفت جميع ما فيهِ وصحّ ما قالت فسلّم اليها الكيس فاخذتهُ وانصرفت والخلق يدعون لصاحبي ويتعجّبون من دينهِ وامانتهِ

ثم اني جئتُ الى الدار كما اوصاني فوجدتهُ جالساً يزن ما تحصّل لهُ واذا بهِ مقدار

ما قدّرتهُ في خاطري . فلمّا دخلت وجلست قال لي : هل رأيت ما فعلت اليوم . قلتُ : نعم وانا الوملك على ذلك . قال : لمَ . قلت : لانهُ كان قد حصل لك شيءٌ يساوي خمسمائة دينار فبدلتهُ بهذا القدر . فقال : هل تعرف الكيس والمرأة التي أخذتهُ . قلت : اذا أبصرتهما عرفتهما . فقال : يا حرير خلّي العجوز تجيء بالكيس . فقامت والكيس في يدها . فقال : هذا الكيس وهذه العجوز حماتي والحلي لابنتها وانا الذي سيّرتها بهذه الحيلة . فلو اقمتُ طول النهار كم كان يحصل لي . فلمّا ان وعيت ذلك تعجّبت منهُ كل العجب ثم انصرفت من عندهُ »

هذا بعض ما اخبر بهِ الجوبريّ وقد اخذنا العجب منهُ انهُ رضي بضيافة احد هؤلاء الدلّالين ولم يأنف من خبثهِ ولم يهتك امام الحضور سترهُ وكأنهُ لامهُ على ما اظهر من المروءة . فانّ اخباراً كهذه لا يجوز روايتها الّا مع الاشمئزاز من فاعليها وتقريعهم على سوء اعمالهم

ثم ارداف الجوبري هاتين القصتين بقصص أخرى من جنسهما كقصّة احد اصحاب لهُ اسمهُ محمّد بن غنيمة الدمشقي الذي كان يدور في بلاد الروم فوجدهُ النكاتب وسألهُ عن حالهِ وعملهِ . قال الجوبري (ص ٣٩) :

فاحضر لي صندوقاً من الابنوس وعليهِ شيء كثير من الاستار التي تكون على الكعبة وعليهِ ثوب اطلس مع قفل من ذهب سواقطهُ من الفضّة وسايرهُ ذهب وقد اخذ تعلّا على هيئة نعل رسول الله صلعم وشراكهُ من خوص فسمّرهُ في ارض الصندوق بمسامير من ذهب وفضّة وجعل فيهِ انواع الطيب وقد زعم انّ هذا نعل النبي صلعم وهو دائر في بلاد الروم وذلك الصندوق على رؤوس العبيد وقد ادّعى انهُ من بني شيبة وقد حصل من ذلك جملةٌ من المال . . .

وذكر غيرهم وجدهم يدورون بصندوق آخر جعلوا فيهِ « قطعة من عباءة زعموا انها كانت لاهل البيت » . وذكر اخرين في بلاد العجم كانوا يُرون « قطعة من عباءة ابي بكر الصديق »

(لهُ بقية)